من اللّسانيات الاجتماعية و تعليمية اللّغة العربية في آراء ابن خلدون

د/ مسعودة خلاف شكور

جامعة محمد الصديق بن يحي– جيجل

الملخص:

قد يبدو الجهد التعليمي لتعليم اللغات عموما واللغة العربية خصوصا بتأثير وتأطير من البحث اللساني المعاصر للدرس اللساني العربي جهدا جديدا في طرحه وأفكاره ومحتوياته المطبقة في الفعل التعليمي التربوي تحديدا؛ نظرا لترديد معظم التربويين والتعليميين للنظريات الغربية ومحاولاتهم لتكييفها مع الواقع التعليمي والتربوي العربي، لكن المتفحص للتراث العربي وما احتوته مدونته المتداخلة الأنساق لابد سيؤكد أن القول في الفعل التعليمي لم يكن غائبا عن وعي علماء اللغة القدامى؛ فهناك الكثير من الآراء التي قاربت تعليمية اللغة، وبطرح لا يقل عمايردده ويتبناه التعليميون اليوم من آراء ونظريات. وتسعى هذه الوقفة مع مقدمة ابن خلدون إلى الاقتراب من آرائه في تعليم اللغة؛ الآراء التي كانت في معظمها –كما ستوضح الدراسة– على الدرجة نفسها من الوعي الذي تطرحه التعليمية واللسانيات الاجتماعية اليوم في محاولة للإجابة على سؤال رئيس قد تكون واحدة من الأطر التأسيسية لتعليمية اللغة العربية اليوم.: هل تعليمية اللغة العربية في آراء اين خلدون اتصال أم انفصال مع الدرس التعليمي اليوم؟.

الكلمات المفاتيح: اللسانيات الاجتماعية، اللسانيات الاجتماعية للغة العربية، تعليمية اللغة، تعليمية اللغة العربية، ابن خلدون.

يقع الباحث في مقدمة ابن خلدون على عديد الآراء التي يمكن وصفها بأنها آراء هامة في تعليم اللغة واللسان معا؛ فالجهد الذي مكن ابن خلدون من هذه الآراء لا يتوقف عند معاينة لواقع اللغة العربية زمنه–مما يمكن عدّه دراسة وصفية للغة العربية نظرة تعليمية مستشرفة لها– بل يتجاوزه إلى طرح تصور مؤسس في المسائل والقضايا اللغوية واعتماد تحليل لما ينتج عن هذه المسائل والقضايا من تأثير في تعليم اللغات وفي اللغة العربية تحديدا. وهو في ذلك يستعين بجهاز مصطلحي قد يكون –بعد فرزه مما يشي ويحيل على لغة عصره– مماثلا لما تدعو إليه التعليمية وكذا اللسانيات الاجتماعية اليوم. الأمر الذي يقود إلى الجزم على كون هذه الآراء الغائبة أو المغيبة في درس تعليم اللغات اليوم، إنما هي تأصيل له يحتم على الباحثين والمهتمين من المتخصصين فرزه وتثمينه وتنظيمه بوصفه معرفة قابلة للاندراج في محتويات التعليم والتكوين في هذين الفرعين من المعرفة؛ اللسانيات الاجتماعية والتعليمية. وهو جهد تأمل الدراسة تحققه في بعض المصطلحات والمفاهيم والآراء الموجودة في المقدمة.

1 –ابن خلدون والدراسة الوصفية للسان العربي:

لئن كان المسجل للسانيات اليوم اعتدادها بالمنهج الوصفي[1] فلا بد من أن يسجل لابن خلدون اعتماده على المنهج ذاته في دراسته للغة وقضاياها؛ ذلك أنه حين يقول:" نحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد...ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط"[2] لابد من التأكد أن دراسته للغة ولسان عصره منبثقة عن معاينة لواقعهما في الاستعمال، ومن ثم يدرك الباحث لا محالة مع مثل هذا القول أن حديث ابن خلدون عن اللغة مجانب للمعيارية التي ترفضها اللسانيات بمنهجها الوصفي القائم على المعاينة؛ فاالآراء عنده كانت معتمدة على معاينة الواقع اللغوي لعصره وموازنته مع ما كان قبله من أحوال اللغة واللسان، وهي المعاينة التي سمحت له بمعرفة مواطن التمايز والاختلاف بين اللسان العربي زمنه وطرق تصريفه وبين اللسان الأول له أو المنحدر عنه الذي هو اللسان المضري كما سيأتي فيه التفصيل لاحقا.

يدعم ابن خلدون آراءه في الطرق الناجعة في تعليم اللغة العربية بمعاينته لتباين مخرجات التعليم بين الأمصار العربية المشكلة للبلاد العربية زمنه، مؤكدا بذلك تبنيه المنهج الوصفي في مقاربة اللغة العربية؛ فيقول فيما يعد وصفا لواقع تعليم اللغة في الأندلس: "أما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسّل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصّروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع"[3]، لتكون طريقة أهل المشرق في تعليم اللسان العربي غير مفصل الحديث فيها لعدم علمه بها،

[1]- ينظر:
Ferdinand De Saussure: cours de linguistique générale, éditions Talantikit, Bejaia, Algérie, 2002, p33.
[2]- المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دراسة: أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت، ص575-576.
[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص616.

ليقتصر في توضيحها على ما كان يصله من روايات في إثبات تشابه طريقة أهل المشرق بطريقة أهل الأندلس[1]، وهو ما يسجل عنده إجراء منهجيا قائما على الدراسة الوصفية المركزة على المعاينة الفعلية للظاهرة اللغوية وتحليلها.

2 -في البعد الاجتماعي للغة عند ابن خلدون:

إن انتباه الدرس اللساني الحديث للبعد الاجتماعي للغة وتخصيص دراسته بفرع قار –هو اللسانيات الاجتماعية[2]– لا يعني بأي حال من الأحوال عدم وعي اللغويين القدامى بهذا البعد، على الأقل في الدرس اللغوي العربي القديم؛ فالعديد من آراء اللغويين العرب في اللغة تحيل مباشرة على عدم فهمهم للغة بعيدا عن هذا البعد وعن دورها بوصفها وسيلة للتواصل الاجتماعي المميز للإنسان؛ فحين يعرّف الخليل اللغة بأنها اختلاف الكلام في معنى واحد يدرك بأن هذا الاختلاف اختلاف تقره الجماعة المتكلمة وليس الفرد المتكلم وحده في معزل عن الجماعة وما اتفقت عليه، بل إن الأصل اللغوي اللغو الذي معناه السقط من الكلام وأرجع إليه اللغويون العرب القدامى مصطلح اللغة يحيل على اتفاق الجماعة المتكلمة على أن تكون هذه العناصر الكلامية– كلمات أو عبارات– غير مقبولة في التداول، ليس لافتقار هذه العناصر اللغوية للسلامة اللغوية اشتقاقا وتصريفا بل لما تحمله من دلالة مرفوضة في هذا المجتمع الكلامي، مما يؤكد ارتباط اللغة في استعمال وأخذ المتكلمين لها بالمجتمع الذي تنتسب وينتسب إليها. وحين يعرض حد ابن جني في اللغة "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[3] تكون كلمة قوم محيلة على الجماعة المتكلمة، وعلى ما تتواضع عليه الجماعة وتتفق عليه.

في المقدمة يؤكد ابن خلدون على البعد الاجتماعي في حديثه عن اللغة؛ فكان امتلاك اللغة عنده مرتبطا بالدرجة الأولى بالبيئة اللغوية أو بالجماعة المتكلمة؛ فقال في تملص صغار العجم من العجمة في كلامهم بسبب احتكاكهم المبكر بأهل اللغة العربية: "وإذا كان مقصرا في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم"[4]؛ فللبيئة اللغوية عنده دورها الرئيس والفعال في تقديم لغة المنشأ للمتكلمين، وكلما كانت سن الاحتكاك بهذه اللغة مبكرة كلما ساعد ذلك مكتسب اللغة من امتلاك ملكة اللغة دون خوف عليه من الازدواجية أو الثنائية اللغوية، وهو التصور الذي تردده التعليمية اليوم، وتؤكد به ضرورة استثمار لغات المنشأ في تعليم الأصاغر من المتعلمين[5]. وهذه العلاقة بين اللغة وبيئتها تثبت أن اللغة عند ابن خلدون في بداية أمرها ونهايته اجتماعية ولا يمكن أن تدرس وتعرف بعيدا عن هذا الدور، وهو وعي

[1]- المصدر نفسه، ص615.
[2]- Jean Dubois et autres : dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse-Bordas, HER, Paris,1999 p390-435.
[3]- ابن جني: الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط2، 2003، ص324.
[4]- ابن خلدون: المقدمة، ص564.
[5]- جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض النفسي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، يناير 1990، ص87-94.

يؤطر الدرس اللساني الاجتماعي اليوم؛ إذ يردد المشتغلين في هذا التصور حكمهم بأن الكلام "صورة مصغرة منالنظامالاجتماعي، فإذا كنا نرغب في معرفة ما يدور عند إنتاج الكلام فلا يكفي أن نعتني بالمتغيرات السيكولوجية فقط، وإنما ينبغي أن نعتني أيضا بالمتغيرات الاجتماعية"[1].

3- آراء من اللسانيات الاجتماعية والتعليمية في مفهوم اللغة عند ابن خلدون:

3-1 "اللغة" و"اللسان" عند ابن خلدون:

يوظف ابن خلدون في المصطلحين "لغة" و"لسان" معا للدلالة على المفهوم ذاته؛ فقد تكرر في مقدمته استخدامه للمصطلحين بالمعنى نفسه، وقد حدث في أماكن عدة من المقدمة اجتماع المصطلحين في العبارة ذاتها مع حملهما للمعنى نفسه؛ ومن ذلك قوله – وهو قول في ترجمة العلوم إلى العربية-: "أصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها"[2]. والمتميز في فهم ابن خلدون للغة كون مفهومها عنده متأسس على قائمة من المصطلحات الكثير منها مستمر بمفهومه وتسميته في الدرس اللساني المعاصر، وهي مصطلحات تكشف وعيا لا يقل عن ذلك الذي قدمته المدارس اللسانية للغة كما سيتضح.

3-2 الملكة اللسانية عند ابن خلدون:

يقول ابن خلدون في مفهوم الملكة اللسانية: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان"[3]؛ فاللغة حسبه إذ الغاية منها تعبير الناس عن مقاصدهم لابد أن يكون هذا التعبير خاضعا لما اتفق عليه المتكلمون من قواعد وقوانين للكلام؛ فلا يتم الإبانة عن المقصد إلا إذا كان الكلام خاضعا لما اتفقت عليه الجماعة المتكلمة من شروط في الكلام. وعلى اعتبار الكلام في بنيته الأولى أصوات فقد كان عضوه اللسان. واللسان لا يكفي للإبانة عن المقصد إذ لابد له من عضو آخر ينظم خروج الأصوات ويحقق الإفادة من هذا الخروج، ليكون هذا العضو هو العقل بما يحمله من دلالة القصد من جهة، وما يخزنه من قواعد اللغة وشروط سلامتها في العبارة، من جهة أخرى. ليكون تجسد هذه السلامة هو الملكة اللسانية التي لابد من تحققها في المتكلم لترشد اللسان في التعبير عن المقاصد؛ فالكلام حسب ما تقدم ليس اللغة/اللسان في تصور ابن خلدون؛ بل هو شيء يشمل اللغة واللسان ولا يتكون إلا بهما؛ لأنه خاضع لما اتفقت عليه الجماعة المتكلمة من شروط لسلامة الكلام، وتحقيقه لشرط الإفهام. وليس بالغريب بعد هذا المنطلق الوصفي الخلدوني أن تكون الآراء التي توصل إليها هي ما يردد دي سوسور الذي يرجع إليه تاريخ

[1]- المرجع نفسه، ص78.
[2]- ابن خلدون: المقدمة، ص564.
[3]- المصدر نفسه، ص565.

اللسانيات الغربية الفضل في اعتماد الوصف اللغوي منطلقا للدراسة اللسانية؛ فقد قال دي سوسير في تمييز الكلام عن اللغة: "توظيف الكلام يعتمد على الملكة التي نمتلكها بطبيعتنا، بينما اللغة هي شيء مكتسب ومشترك، وينبغي أن تكون مرتبطة بالفطرة الطبيعية"[1].

إن الملكة اللسانية التي تحدث عنها ابن خلدون يقابل مفهومها في الدرس التعليمي اليوم بالعبارة الاصطلاحية الكفاءة اللغوية التي طرحها تشومسكي؛ فالكفاية اللغوية التي يعتبرها تشومسكي نظاما من العوامل التوليدية[2] في أبسط تعريف لها عنده هي: "نظام القواعد المضمر من طرف المتكلمين ويكوّن معرفتهم اللغوية التي بوساطتها هم قادرون على فهم وتكوين عدد غير منته من الجمل"[3]. إنها ما يمكن أن يختصر تعريفها إلى: "المعرفة الضمنية باللغة"[4]، والمقصود بهذه المعرفة الضمنية ما يخزنه الفرد في نشأته في بيئة كلامية معينة من مقدرة على الفهم والتعبير بلغة ولسان هذه البيئة، وتتجسد هذه المعرفة الضمنية بالأداء الكلامي الذي يختلف من شخص إلى آخر، وباختلاف الرسالة التي يود المتكلم إيصالها، على أن تكون هذه الرسالة محافظة على القواعد التي يضمرها المتكلم عن لغته ولسانه من جهة، وتعكس إبداعيته في استعمال هذه القواعد والإبانة عن مقصده من الكلام من جهة أخرى. وتأسيسا على هذا الفهم للكفاءة اللغوية يبدو تعريفه ابن خلدون للملكة اللسانية أو اللغوية بقوله: "إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية"[5] قولا حاملا لمفهومي الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي–الذي هو المفهوم المرافق لمفهوم الكفاءة اللسانية عند تشومسكي[6]– على حد سواء؛ فصناعة العربية –التي هي ملكة العربية حسب ابن خلدون– هي معرفة القوانين ومقاييسها الخاصة التي هي حسب الدرس اللساني التحويلي الكفاءة اللغوية، وهذه الملكة حسب ابن خلدون علم بكيفية؛ أي قوانين مضمرة أو ضمنية عند المتكلم، تتبدى من خلال الأداء اللغوي الذي عبر عنه بـ"نفس الكيفية"، الذي قد يعني بها تَكَلُّم المتكلم حسب طرق الكلام المعروفة في لغته ولسانه.

3–3 المهارات اللغوية وعلاقتها بالملكة اللسانية عند ابن خلدون:

إن الملكة اللسانية عند ابن خلدون تأخذ المفهوم ذاته الذي خصتها به اللسانيات التطبيقية؛ فإذ ترى اللسانيات التطبيقية في الملكة اللغوية[7] ارتكازها على مهارات أربع هي الاستماع (فهم المسموع) والكلام والكتابة والقراءة (فهم المقروء) [8]، يسجل لابن خلدون وعيه التام بهذه المهارات اللغوية التي تعكسها الملكة اللسانية عنده.

---

[1]- Ferdinand De Saussure : Cours de linguistique générale, p17.
[2] - George Mounin : Dictionnaire de la linguistique, Quadrige,4° édition, 2004, p75.
[3]- Jean Dubois : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p 100.
[4]- ميشال زكريا: الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص7.
[5]- ابن خلدون: المقدمة، ص579.
[6]- ينظر: جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض النفسي، ص41-44.
[7]- ينظر: جوهارد هلبش: تاريخ علم اللغة الحديث، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2003، ص477 و516-517.
[8]- تصنف المهارات اللغوية إلى مهارتين استقباليتين، هما الاستماع أو فهم المسموع والقراءة أو فهم المقروء، ومهارتين إنتاجيتين، هما الكلام والكتابة. ينظر : عبده الراجحي: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2000، ص22. وأيضا: محمد رجب فضل الله: الاتجاهات التربوية المعاصرة في تدريس اللغة العربية، علم الكتب ،القاهرة، ط2، 2003، ص35-122-143. وينظر أيضا: محمد علي الخولي: الحياة مع لغتين: الثنائية اللغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2002، ص32.

3-3-1 في مهارة الفهم:

يقول ابن خلدون في مهارة الفهم المحيلة على فهم المسموع والمقروء معا: "إذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي والجبلي، زال ذلك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم"[1]؛ فالملكة اللسانية حسبه لا تكتمل إلا بالفهم؛ وهو فهم المكتوب وفهم المسموع على حد سواء؛ يقول في ذلك أيضا: "وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك، بتمام ملكته"[2]؛ فتمام الملكة لا تتوقف عند مقدرة المتكلم على فهم ما يسمع ويقرأ بوصفها المهارات الاستقبالية اللغوية الداعمة للتواصل اللغوي الاجتماعي حسب التصنيف التعليمي للمهارات؛ بل هي محتاجة للقول بتمام الملكة إلى مهارة الكتابة أو الخط عند ابن خلدون ومهارة التعبير أو العبارة كما عبر ابن خلدون، وهما المهارتان الانتاجيتان في الدرس التعليمي اليوم[3].

وقد وعى ابن خلدون دور النشأة اللغوية في تحفيز الملكة وعدم الاستغناء عنها لصقل مهارة الفهم؛ فالفهم –حسبه– إذ يكون يسيرا لمن نشأ على لغة من اللغات فإنه يحتاج لمن لم ينشأ عليها إلى المران وطول التعلم لتحصيلها؛ يقول في ذلك: "وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك، بتمام ملكته، وإنه صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال، كالجبلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما نجده في الكثير من علماء الأعاجم"[4]. وهو رأي يردده اللسانيون النفسانيون والتعليميون اليوم في في تفصيلهم في لآليات اكتساب اللغات الأول والثواني وغيرها.[5]

وقد انتبه ابن خلدون إلى أهمية سلامة عضو الأذن في اكتساب اللغة، مشيدا بدور حاسة السمع في امتلاك ناصية اللغة؛ فقال: "السمع أبو الملكات اللسانية"[6]. وذلك يعكس انتباهه الكبير إلى دور حاسة السمع في أخذ اللغة؛ حيث يضطر فاقدها إلى الاستعاضة بلغة الإشارات عن اللغة العادية للتعبير عن أفكاره ولا تفيده سلامة جهاز النطق مع عدم سلامة جهاز السمع في تحصيل اللغة وتحقيق التواصل اللغوي العادي؛ فحاسة السمع هي التي تمكن من الاستعمال الشفوي للغة بوصفها الخطوة الأولى لتحصيل اللغة عامة. واللسان واللغة الشفوية المسموعان بهذا الفهم هما أول أشكال احتكاك المتكلم بهما؛ يسمعهما في بيئة نشأته، ويحتفظ بهما إلى حين استعماله الفردي لقواعدهما أثناء كلامه. واللغات والألسن البشرية يحكمهما في ذلك قانون واحد هو قانون الاكتساب والتعلم حاول ابن خلدون الإشارة إليه في معرض حديثه عن اللغات والألسن الأعجمية؛ فقال: "نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب...فصار للحروف في لغتهم

[1]- ابن خلدون: المقدمة، ص563.
[2]- المصدر نفسه، ص564.
[3]- ينظر: محمد علي الخولي: الحياة مع لغتين، ص32.
[4]- تحمل اللغة هنا معنى اللهجة بدليل توظيفه لها جمعا منسوبة إلى العرب "لغاتنا" إلا أ ن انحدارها من أصل واحد يجعل ما هو صادق على اللسان منسحبا وصادقا عليها. ابن خلدون: المقدمة، ص564.
[5]- ينظر: نايف خرما وعلي حجاج: اللغة ألأجنبية تعليمها وتعلمها، ص73.
[6]- ابن خلدون: المقدمة، ص566.

والحركات والهيئات، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا"[1].

3-3-2 في مهارة الكتابة:

يميز ابن خلدون في مهارة الكتابة بين الكتابة بمفهومها الأدبي المتداول اليوم أي بمعنى تجسد الكفاءة أو القدرة اللغوية في إبداع ما[2]، والكتابة بمفهوم الخط؛ فالكتابة بمعنى الخط –زمنه– من الصناعات المتفردة بنصيبها في تعليم المتعلمين وتدريب الخطاطين والوراقين[3]، وهي في تعريفها عنده: "رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس...وهو صناعة شريفة"[4]. وللكتابة بهذا المفهوم عنده فائدة عظيمة ليس لكونها من الصناعات المتكسب بها وحسب، بل هي كما يوضحه عنوان فصل من المقدمة "الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب"؛ إذ يقول في فضل الكتابة بمعنى الخطاطة في الفصل المذكور: "الصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة...كلها قوانين تنتظم علوما، فيحصل منها زيادة عقل. والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك...وبيانه: أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال؛ ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس؛ فهو أبدا ينتقل من دليل إلى دليل...فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات...فتُكسِب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل. ويحصل به قوة فطنة وكيس في الأمور، لما تعودوه من ذلك الانتقال"[5]. فالكتابة بهذا المفهوم تمكن المشتغل فيها من تلمس المعاني التي مكانها العقل حين يباشر رسمها فتكون من فوائد ألفته لهذه المعاني زيادة عقل وفطنة.

يتحدث ابن خلدون عن الكتابة بمعنى الإبداع باللغة وباللسان ضمن فنون القول في اللغة العربية، وهي عنده في جنسي المنظوم والمنثور اللذين خصهما بالحديث في غير موضع واحد من المقدمة. وتكفي الإشارة إليهما هنا ضمن ما كان من حديث في فصل من المقدمة معنون بـ"في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني"، وقد جاء في تعريف هذه الصناعة وبيان أوجه تحصيلها فيه قوله: "اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني...فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر، إنما يحاولهما في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة...فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل"[6]. وبهذا الحديث عن ملكة الشعر وملكة الكتابة وعدم بروزهما إلا بحفظ النماذج المماثلة لها من الإبداع يبدو وعي ابن خلدون بما يقدمه هذا

[1]- المصدر نفسه، ص566.

[2]- George Mounin : Dictionnaire de la linguistique, p120.
ينظر أيضا: عبد الراجحي: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، ص20، وأيضا : محمد رجب فضل الله: الاتجاهات التربوية الحديثة في تدريس اللغة العربية، ص143.

[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص399.

[4]- المصدر نفسه، ص397.

[5]- ابن خلدون: المقدمة، ص410-411.

[6]- المصدر نفسه، ص596-597.

الحفظ من سياقات لغوية تقدم للمبدع في جملة ماتقدمه حماية من الوقوع في استعمالات لغوية لا تقرها الجماعة المتكلمة التي يكتب لها. ليكون هذا الجانب القاعدي من تمثل السياقات اللغوية هو الصقل اللغوي المنشود في المهارات الانتاجية للغة؛ وهو الصقل الذي تعتبره التعليمية اليوم من أوجه امتلاك اللغة أو اكتسابها بعد أن أصبح الاكتساب اللغوي لا يتوقف عند حدود المهارة اللغوية التي قد لا تبرز استعمال المتكلم لغة من اللغات المكتسبة بل يتعداه إلى المهارة التواصلية التي تكشف الاستعمال اللغوي للحكم على الاكتساب اللغوي ومستوياته[1].

3-3-3 في مهارة الكلام:

يحدد ابن خلدون قيمة الكلام في إفادة المعنى في حديثه عن مهارة الكلام؛ فيقول:" اعلم أن الكلام الذي هو العبارة أو الخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى...وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان لأنهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[2]؛ والبلاغة هنا ليست مراعاة جماليات القول العربي بمستواه الأسلوبي الرفيع كما هي حين الحديث عن الإبداع وفنونه بقدر ما هي دلالة على الإبانة والإفصاح وملاءمة الكلام أو العبارة لمحتوى الرسالة الذي يرغب المتكلم في إيصاله للمخاطب حين الحديث عن المهارات الانتاجية من اللغة وبها، وهذا هو تعريفه للكلام المطبوع الذي هو يقول فيه: "إذا قالوا الكلام المطبوع فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل عليه دلالة وثيقة"[3].

4- سبل التمكن من اللغة العربية عند ابن خلدون:

إن الدراسة الوصفية التي أقامها ابن خلدون على الألسن المنتشرة زمنه مكنته من الخوض في الطرق التي تكفل للمتعلمين تعلم اللسان المضري، لاسيما وقد أثبت بأن من العلوم الضرورية العلوم الشرعية، وقد كان المصدران الأولان –القرآن والحديث– لهذه العلوم بهذا اللسان. والملفت للنظر في شأن تعلم اللسان المضري حسب التصور الذي يقدمه ابن خلدون في مقدمته ومن خلال فصل حمل عنوان "في تعلم اللسان المضري"[4]، أنه تصور يتفق مع الاتجاهات المعاصرة في تعليم الألسن، لاسيما تعلم اللسان في إطار من وظيفته التواصلي؛ فتعلم اللسان المضري عند ابن خلدون لن يكون بتعلم قوانين الملكة فحسب، بل بالتعلم الذي يؤدي إلى تحصيل الملكة، وهو يعتمد عنده على خطوتين ملزمتين:

[1] - Apprentissage des langues et citoyenneté européenne, conseil de l'europe, un cadre européen commun de référence pour les langues (apprendre, enseigner, évalue). Division des politiques linguistiques, strasbourg, 2000, p148-153.

[2]- ابن خلدون: المقدمة، ص599.
[3]- المصدر نفسه، ص599.
[4]- المصدر نفسه، ص578.

– الخطوة الأولى للتحصيل اللغوي تؤكد على ربط المعرفة بالقوانين بالسياقات التي تستعمل فيها هذه القوانين. الربط الذي يكون بالاطلاع على هذه السياقات كما هي موجودة في كلام العرب؛ في شعرهم ونثرهم؛ يقول في ذلك: "ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن الكريم والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلام المولدين أيضا في سائر فنونهم؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم"[1]. إن حفظ كلام العرب في تصور ابن خلدون هو البيئة اللسانية الاصطناعية التي تعوض البيئة اللسانية الطبيعية في الطرح التعليمي المعاصر، وهو ما يعد انتباها منه لأهمية البيئة اللسانية في اكتساب اللسان، وضرورة مماثلتها في التعلم؛ فقد قال في أهمية البيئة اللسانية الطبيعية وضرورة تمثلها في حال افتقادها في تحصيل الملكة اللسانية: "حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه. ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم"[2] . ولا يؤكد ابن خلدون على أهمية البيئة اللسانية طبيعية أو اصطناعية لتحصيل الملكة اللسانية فقط؛ إنما يعكس انتباهه للبيئة اللسانية إدراكه للفرق الكامن بين اكتساب اللسان وتعلمه؛ فقد عكست آراؤه استفادة من طريقة اكتساب اللسان في الصغر لتعلم اللسان في الكبر؛ فقال فيما يعد عنده تمييزا للاكتساب عن التعلم: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها؛ فيلقنها أولا، يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم...وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة"[3]، وفي تمييز الاكتساب عن التعلم يردد اللسانيون الرآي ذاته؛ فعندهم "الاكتساب يحدث في الطفولة، أما تعلم اللغة فيحدث في مرحلة متأخرة حين يكون الأداءاللغوي قد تكوّن، وحين تكونالعمليات العقلية قد نضجت"[4] .

– أما الخطوة الثانية للتحصيل اللغوي تؤكد أن تحصيل الملكة لا يتم عن طريق تعلم قوانين اللغة ومعرفة سياقاتها؛ بل لابد للمتعلم من توظيف ما تعلمه في كلامه؛ يقول في ذلك: "ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة"[5]. ويقول أيضا في موضع آخر: "وتعلم ما قررناه في هذا الباب، أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو

[1]- ابن خلدون: المقدمة، ص579.
[2]- المصدر نفسه، ص581.
[3]- المصدر نفسه، ص574.
[4]- عبده الراجحي: علم اللغة تطبيقي وتعليم العربية، ص22.
[5]- ابن خلدون: المقدمة، ص579.

بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه"[1]. وجلي جدا أن حديث ابن خلدون على الاستعمال المحتكم إلا السياق هو ما تؤكد عليه التعليمية اليوم في اعتبارها أن متعلم اللسان لا يعد متقنا له إلا بامتلاكه للمهارات اللسانية الأربع، الإنتاجية منها والاستقبالية على حد سواء، وهي المهارات التي دفعت تعليمية اللغات اليوم إلى اعتماد المقاربة النصية[2] لاستحضار السياقات اللغوية عند تعلم اللغات، ومن ثم تمثل متعلم اللغة لهذه السياقات حين التواصل، ولذلك استدرك التعليميون فقالوا: "إن امتلاك النظام اللغوي وحده ليس كافيا لتحقيق أداء لغوي متوازن، بل لا بد من امتلاك القدرة على استخدام اللغة في مواقف ملائمة ومناسبة"[3].

بالخطوتين السابقتين معا يمكن لمتعلم اللسان المضري في تصور ابن خلدون أن يمتلك الملكة اللسانية المطلوبة؛ فـ"على قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها"[4].

وللقارئ أن يتساءل بعد كل هذه الآراء من ابن خلدون هل كان على المتخصصين العرب أن ينتظروا نشأة التعليمية كي يتحدثوا عن المقاربات النصية، وأن يتحدثوا عن الوظيفة التواصلية للسان ومهاراتها؟. وهل كان تعليم اللغات والألسن باعتماد للمقاربة التواصلية المتأصلة في الدرس اللغوي العربي منتظرا للدرس الغربي كي يقدم له ما كان قد أقره وأثبته اللغويون العرب منذ قرون خلت؟.

[1]- المصدر نفسه، ص581.
[2] - Apprentissage des langues et citoyenneté européenne, conseil de l'europe, un cadre européen commun de référence pour les langues (apprendre, enseigner, évalue). Division des politiques linguistiques, strasbourg, 2000, p148-153.
[3]- وليد أحمد العناتي: نهاد الموسى وتعليم اللغة العربية، رؤى منهجية، وزارة الثقافة، الأردن، 2005، ص94.
[4]- ابن خلدون: المقدمة، ص579.

الإحالات:

باللغة العربية:

– الاتجاهات التربوية المعاصرة في تدريس اللغة العربية: محمد رجب فضل الله، علم الكتب، القاهرة، ط2، 2003.

– الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

- تاريخ علم اللغة الحديث: جوهارد هلبش، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2003.

– الحياة مع لغتين: الثنائية اللغوية: محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2002.

– الخصائص: ابن جني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط2، 2003.

– سيكولوجية اللغة والمرض النفسي، جمعة سيد يوسف، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، يناير 1990.

– علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية: عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، دط، 2000.

– المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دراسة: أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت.

– نهاد الموسى وتعليم اللغة العربية، رؤى منهجية: وليد أحمد العناتي ، وزارة الثقافة، الأردن،2005.

باللغة الأجنبية:

- Apprentissage des langues et citoyenneté européenne, conseil de l'europe, un cadre européen commun de référence pour les langues (apprendre, enseigner, évalue). Division des politiques linguistiques, strasbourg, 2000.

- Cours de linguistique générale : Ferdinand De Saussure, éditions Talantikit, Bejaia, Algérie, 2002.

- Dictionnaire de la linguistique : George Mounin, Quadrige,4° édition, 2004.

- Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage : Jean Dubois et autres, Larousse-Bordas, HER, Paris,1999.